العدد (2050) السنة الثامنة - الأثنين (21) شباط 2011 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

على هامش الصراحة

المعلومات

إحسان شمران الياسري

قبل عام ٢٠٠٣ كان لدينا عدد محدود من وسائل الاعلام، نحو ثلاث فضائيات وخمس صحف ومحطتي إذاعة. وكنا بهذا العدد من وسائل الاتصال نحصل على المعلومات المتاحة عن بلدنا وعن العالم.. وكنا نستمتع بما متاح من الأفلام والمسلسلات وأفلام الكارتون!!.

كما كانت البرامج التعريفية بالأنشطة والوزارات تؤدي اغراضها في توفير القدر اليسير من معلوماتنا عنها.. فضلاً عن إن تلك الوسائل وفرت لدينا قدراً من المعلومات عماً يدور في العالم.. ولم نستزد بمعلومات مستقلة ومغايرة لمنهج النظام السابق إلا من خلال أجهزة المذياع التي لم تضع عليها السلطة رقابة لأنها لم تستطع ذلك.

ما ينقصنا اليوم، معلومات مهمة وضرورية عن الكثير من المفاهيم والمؤسسات والاشخاص والمشاريع.. ففي هذا المهرجان الهائل من وسائل الاعلام والاتصال وثورة المعلوماتية، فَقَدَ جيلنا، وهو جيل عاصر الجمهوريات الخمسة، كل المعلومات المنهجية عن حياة بلدنا بكل تفاصيلها وآفاقها ومدياتها ومساحاتها، فكيف بالأجيال التي تلتنا، والتي بدأت أعمار بعضها مع عمر الحصارات والحروب، يعني جيل الثمانينات، حيث تلبّدت دُنياهم بغيوم سود حوّلت اهتماماتهم إلى الخبز والنفط الأبيض والسقف الآمن..

سيكون الشعب مُمتناً لو بادرت المؤسسات بالتعريف بها وبمهامها وبخططها، وأدوات تنفيذها.. وسنكون ممتنين لو أعدت تلك التعريفات بطريقة تستوعب المدارك العالية والمحدودة للمجتمع.

ففي تجربة شخصية، اتصلتُ قبل يومين بالناطق الإعلامي لأمانة بغداد وتحدثت معه بعصبية، ونلتُ منه ومن السيد أمين بغداد، بعد أن طفح الكيل بنا ونحن نعاني منذ أكثر من شهرين الاختناقات المرورية على جانبي القناة بسبب عمليات إصلاح الفواصل (الجوينات) في الأنفاق تحت الجسور.. وكيف إن آلاف السيارات تتجمع بداية الدوام، ونهايته لتجاوز الممرات الأحادية التي تركها المقاول.. وكيف إن الشركة الكورية كانت تنجز العملية في ثلاث ساعات خلال الليل فقط.

استمعَ إليّ الأخ الناطق الإعلامي ورجاني أن أبعثها برسالة نصية بالهاتف لكي يوصلها للسيد الأمين.. وقد كتبتها بلغة حادة مع الاحتفاظ قدر الإمكان باللياقة.. بعد دقائق جاءني الرد من صديقي الناطق الإعلامي بأن هذه العملية من مهام وزارة الإعمار والإسكان وليس من مهامَ الأمانة.. فقلت: وهسّه لازم يكون عدنا صديق بالوزارة حتى نتصل بيه.

إن المعلومات التي نحتاجها، قد لا تتوفر إلا من خلال خطة مدروسة تغطي النقص الواضح في ما نحمله من معلومات وتوفر لنا أسباب التقدم بما نعرف.

ihsanshamran@yahoo.com

الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

اللاعنف.. خلاصنا الوحيد

من السهل أن تزرع الكره، الذي صار انتشار بذوره في الأرض العراقية من أسهل الأمور، لان أجيالاً كثيرة تربت خلال السنوات المنصرمة على أشكال وصيغ جديدة من هذا الشعور، سواء عن طريق الحروب، أو بسبب جوع الحصار الذي امتد لسنوات طويلة، أو ما خلفه النظام السابق من حقد، وصلت حد الرقص برأس قَطع بسيف جلاد..

سعاد الجزائري

بعد ٢٠٠٣ ظهرت صور حديثة للكراهية (الطائفية، او الدينية وربما القومية) أيضاً، وشاركت الكتل السياسية بشكل مباشر او غير مباشر في تعميقها بين جيل الشباب بل وحتى الأطفال، فباتت مفردة (سني او شيعي) تقال قبل كلمة (عراقي) لان الانتماء للطائفة غلب على كل الانتماءات الأعم والاشمل. وتفاقمت نتيجة ذلك مظاهر ونزاعات لم يشهدها المجتمع العراقي من قبل، ودون وعي من الناس، بدأ الكل ينساق تدريجيا خلف اصوات تريد، مصلحتها الشخصية، ان يتعمق الحس الطائفي بين العراقيين، الذين رفضوه في اشد اوقاته تأزما، لكن بقيت الأحزاب والكتل السياسية مصرة على هذا النهج الذي رفضه العراقي أياً كانت شريحته او انتماؤه، وقسمت وفقا لمبدأ المحاصصة والطائفية الكراسي والمناصب الوزارية، ونسي المسؤولون مهامهم وبدأ تفكيرهم ينحصر بكيفية تقسيم باقي كراسي المؤسسات بعد الصف الأول (الوزراء) على مريديهم ومؤيديهم بعيدا عن الاختصاص او الكفاءة ولا أقول الشهادة الاكاديمية التي اصبحت في (خبر كان) كما شائع الآن..

والآن بعد ان شعر الناس بأنهم على وشك السقوط في هاوية تتعمق يوما بعد آخر، خاصة بعد تفاقم الفساد الى مرحلة أصبحت أكثر من علنية، فكل الذين ضبطوا بجرم الفساد ضاعت ملفاتهم في متاهات السياسة وبين مفاوضات سرية مبنية على اتفاق (اسكت عني حتى أسكت عنك) لإخفاء الجرائم المتبادلة بين تلك الأطراف.

بهذا الوقت طفح الكيل عند الناس، لان البطالة وصلت الى الحدود التي يعتبر خريج الجامعة محظوظا ان عمل سائق تاكسي، بل احدهم يبيع الشربت في الشارع، اذن ليس بالغريب ان يبدأ الشباب انتفاضتهم، والتي نتمنى ان لا تكون (انتفاضة حجارة) مع الشرف الكبير الذي حملته تلك الانتفاضة في فلسطين، لكننا في العراق لا نمتلك الحجارة فقط، بل اقل ما نعرفه هو العبوات والاسلحة المنتشرة في كل بيت، رغم المحاولات المتقطعة لجمع الاسلحة بين فترة واخرى، ليعاد توزيعها سرا من قبل نفس الجهات التي جمعتها!

نأمل، ونسعى ان تكون هذه الانتفاضة سلمية وحضارية، تحمل مطالب شعب عانى الويلات منذ أكثر من أربعة عقود، وأرهقته سنوات الكراهية والعنف، وبعد (الديمقراطية!) يريد كهرباء وماء وخبزا وملحا نظيفا، فهل سننجح في أن يقودنا الشباب سلميا كما فعل مؤسس سياسة اللاعنف مهاتما غاندي في مسيرة الملح الشهيرة؟

حينما ينتفض الجائع يعرف السبب وراء ثورته، لكن المسؤول قلما يعرف السبب، لأنه لا يعاني من البطالة، أو أن راتبه الشهري لا يكفيه لتسديد مبلغ الإيجار، فما بالك بمصاريف المعيشة الأخرى، ولان المسؤول لا تنقطع عنه الكهرباء او يشرب من المياه الآسنة، كما شاهدنا احد شيوخنا وهو يشرب ماء ملوثا أمام عدسات التصوير في إحدى القنوات الفضائية.

فهل يحق لهذا المسؤول ان يتساءل لماذا يثور الشباب، الذين يحلمون بغرفة صغيرة ومطبخ اصغر في قطعة ارض اقل من ٥٠ مترا، في حين توزع البيوت والأراضي ببذخ على المسؤولين، وقد حصل الكثير منهم على أكثر من قطعة ارض او بيت، لأنه وزوجته يعملان ضمن سلم الدرجات الخاصة عند الحكومة. لا يحق للمسؤول ان يتساءل لماذا انتفضت شبيبة العراق التي بدأت تبحث عن سبل النسيان من قهر وعوز، فانجرف قسم منهم إلى خانة الإرهاب، والبعض الآخر يغط في غيبوبته (الكبسلة) بينما ينعم أعضاء البرلمان والمستشارون وأقرباء المدير العام الذين يعيشون مجانا في قصور فارهة وفرتها لهم مناصبهم الحكومية وديمقراطيتنا التي تمارس بحق فئة دون أخرى!

هل يعرف هذا المسؤول ان عوائل شابة تخرجت من الجامعات تحلم بوظيفة حارس، لان هذه الوظيفة في الكثير من الأحيان توفر السكن البسيط لهم؟!

لا يحق لأي منا أن يضع هذه التظاهرات في خانة تهديد الوطن، لان من يجوع، أو ينام في غرفة واحدة مع أطفاله، أو لا يمتلك سكنا أصلا، لا يشبه الذي يعيش في قصره مرفه، فالحاجة أم الاختراع كما يقال، ولهذا اخترع الشباب سواء في مصر أو تونس واليوم في العراق تلك التظاهرات التي يريدون عبرها أن يسمع الآخرون صوتهم، لان (الآخرين) لا يسمعون ولا يشعرون بما آلت إليه الأمور من ويلات ومآس جعلت وجوه شبابنا تشيب قبل أوانها.

لكن، كيف نجعل العالم يسمع صوتنا ومطالبنا وليس ضجيجنا، هنا مربط الفرس، لأن تظاهرات العنف والتخريب ستقودنا إلى خراب اكبر وجوع لا مفر منه، و(سيتمكن المتمكن) من الهرب مع عائلته تحت جنح الظلام حاملا معه أكداس أمواله ومجوهرات زوجته، ونبقى نحن بين خرائب صنعناها بأنفسنا، علينا أن لا ننساق وراق أصوات تطالب بالحرق والتدمير، أو رفع شعارات ليست في أوانها، تظاهراتنا سلمية، تحمل الحب للوطن، وتساند من يحمي ثرواته وممتلكاته، لان الخراب يسحب مرتكبيه إلى عمق الهاوية.

العالم سيسمعنا حينما نراهن على حماية ما حولنا من أرواح وأموال، ونطالب بوطن نخدمه ويخدمنا، ونريد حكما يسمع صوتنا ويتفاعل معه، لا يسد الآذان والأعين كي يوهم نفسه أن الأمور تسير بشكل جيد!

سلميا سنتظاهر، ليس حماية لمسؤول على حساب الوطن، وإنما حماية لعراق ينتظر الكثير لحظة انكساره..سنواجه الجوع بالسلم، وسنحارب الفساد بأمانتنا على الأملاك العامة.. لنحمي أرواح من حولنا قبل ان تلتهم نيران الكراهية الأخضر واليابس معا..

التظاهر السلمي هو الذي سيوصل صوتنا إلى الرأي العام او المسؤول، لان العنف والخراب لا يولد إلا عنفا اكبر منه، ولا نسمع أصوات المتظاهرين بل ضجيجهم فقط..

ما نحتاجه اليوم ولكي تتحقق الجدوى من التظاهر هو أتباع سياسة اللاعنف الذي هو خلاصنا الوحيد

ما بعد ماركس.. ما بعد الماركسية

سارتر والماركسية

كان جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠) واحداً من أكثر المفكرين الغربيين، في حقبة الحرب الباردة، التباساً وإثارة للجدل في علاقته بالماركسية، وبالتجارب الاشتراكية. وقد اتخذ موقفاً نقدياً صارماً من النظرية الماركسية ومنهجها الجدلي وتطبيقاتها. لكنه عدَّ نفسه، دوماً، يسارياً، في الخانة عينها التي وضع فيها اليساريون أنفسهم، في مواجهة النظام الرأسمالي بجشعه واستغلاله ولا عدالته ووجهه الاستعماري. ولذا كانت علاقته متذبذبة بالحزب الشيوعي الفرنسي، وبالدولة الكبرى الراعية، في حينها، للحركات الماركسية والثورية في العالم: الاتحاد السوفيتي. وفي هذا الصدد كتب دراسات وأبحاثاً ومقالات عديدة جمعها في كتب شتى، لعلّ أهمها: (نقد العقل الديالكتيكي) و (المادية والثورة) و (قضايا الماركسية) و (شبح ستالين).

سعد محمد رحيم

تحدث سارتر عن الطبيعة الخسيسة للنظام الرأسمالي، وعن خبث الطبقة البرجوازية وفسادها، حيث أنتجتا الفاشية وأهوالها. وطوال حقبة الحرب الباردة، وحتى وفاته، بقي يسارياً، مناوئاً للولايات المتحدة وسياساتها، ودورها في الحروب الإمبريالية، لاسيما في كوريا وفيتنام. والبديل المرغوب فيه، من وجهة نظره، هو شكل ما من أشكال الاشتراكية. وكان مقتنعاً بأن الاشتراكية، لا غيرها، هي التي بإمكانها خلق مجتمع حر، أصيل. وجوهر رؤيته الاشتراكية يتمثل في تأكيده أنْ لا وجود لمجتمع حر "ما لم يستمتع كل عضو فيه بنفس درجة الحرية". وكان تصوّره عن كيفية تحقيق الاشتراكية، وطبيعتها هو أنه "لا يمكن للاشتراكية أن تظهر إلا على يد الطبقة العاملة، ولا يمكن لها أن تنجز شيئاً ما لم تُعط الأولوية المطلقة لحاجات هذه الطبقة". وظل على الرغم من انتقاده للاتحاد السوفياتي، والفظائع التي ارتكبت فيه، لاسيما في عهد ستالين، يرى تفوقاً أخلاقياً للمنظومة الاشتراكية على الديمقراطية البرجوازية. غير أن تقلبات الأحداث منذ الاحتلال الألماني لفرنسا (١٩٤١)، ووقوف الحزب الشيوعي الفرنسي إلى جانب معاهدة عدم الاعتداء الموقعة، في عام ١٩٣٩ بين الاتحاد السوفياتي (ستالين) وألمانيا النازية (هتلر). واعتبار إعلان الحرب من قبل فرنسا وإنكلترا على ألمانيا إثر احتلال الأخيرة بولندا مؤامرة إمبريالية، ثم انقلاب موقف الحزب مع غزو ألمانيا أراضي الاتحاد السوفياتي في يونيو ١٩٤١، ليصبح الحزب في صف المقاومة ضد العدو النازي (المشترك).. نقول؛ مع تقلبات الأحداث هذه ازدادت انتقادات سارتر للشيوعيين والاتحاد السوفياتي حتى وصلت، أحياناً، حد القطيعة. ومع احتلال الاتحاد السوفياتي أوروبا الشرقية بعد انتهاء الحرب وبدء الحرب الباردة ما عاد، في نظر سارتر، كما في السابق "أن من يدعم الشيوعية فإنه يدعم أسباب الحرية". خصص سارتر، في عام ١٩٥٠، عدداً من مجلته (الأزمنة الحديثة) التي كان يرأس تحريرها لفضح وجود معسكر للعمال العبيد في الاتحاد السوفياتي. لكنه بقي إلى جانب فكرة الاشتراكية، وضرورة تحرير الطبقة العاملة. وكتب في عام ١٩٥٢ مقالته الشهيرة (الشيوعيون والسلام)، وفيه تعاطف مع الحزب الشيوعي الفرنسي، ورأى "أن الطبقة العاملة حققت وعياً بذاتها كطبقة من خلال الحزب الشيوعي وحده".

تغير الأمر لمّا قام الاتحاد السوفياتي بغزو المجر وقمع حركة الاستقلال فيها، في عام ١٩٥٦، وكتب مقالته الشهيرة (شبح ستالين) وفيها دان التدخل السوفياتي، وعدّها فساداً من فعل الستالينية، لكنه لم يتخل عن إيمانه بالماركسية "التي ظلت في نظره الفلسفة الوحيدة القابلة للتطبيق في القرن العشرين". وقبل ذلك كانت الستالينية، في نظره، ضرورة تاريخية لبناء الاشتراكية. ولم يسع إلى تخطئة الماركسية في ضوء إخفاقات التجربة أو طبيعتها القمعية، اللاديمقراطية. وأراد للحزب الشيوعي أن يتبنى خطاً فيها قدر من الليبرالية والإصلاح. وذهب إلى أن الوجودية قادرة على تقديم العون للماركسية، فبالتفاتها إلى التجربة المباشرة تستطيع أن تنقذ الماركسية من أن تصبح جافة، متيبسة، ولاهوتاً مجرداً. وقد قال؛ "لا يمكن للوجودية أن تحل محل الماركسية. فالماركسية - والماركسية وحدها هي الفلسفة الصحيحة في العالم الحديث". أما ما تستطيع أن تقدمه الوجودية من عون فهو أن "تساعد الماركسية بوصفها الفلسفة التي تمكن البروليتاريا من إنجاز الوعي الذاتي والأصالة".

اكتست رؤية سارتر إلى مستقبل الجنس البشري بمسحة من التشاؤم. فوجوديته لم تكن لتتلاءم، من هذه الناحية، مع التفاؤل المسطح للماركسية التقليدية السائدة. وقد أظهر، مثل آخرين من مجايليه (ألبير كامو مثلاً)، في كتاباته المختلفة تناقضاً بين "الفلسفة الاجتماعية للنشاط السياسي واليأس الميتافيزيقي العميق". ولعله غدا أكثر تشاؤمية وعدمية مع سحق قوات حلف وارشو، بقيادة الاتحاد السوفياتي، لنسخة الاشتراكية التي أقامها ألكسندر دوبك في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٦٨. وكان رد فعل سارتر ضد عملية السحق تلك عنيفاً ومباشراً. وفي الوقت نفسه فشلت ثورة الطلاب في فرنسا (مايو ١٩٦٨).. هذه الهزائم "تركت سارتر في يأس من مستقبل السياسة في أوروبا فراح يشغل نفسه أكثر منذ الستينيات فصاعداً بصراع عالم المستعمرات ضد سادتهم الإمبرياليين". ومنذ انطلقت شرارة الثورة الجزائرية عمل سارتر على دعم تلك الثورة، وتفنيد أسطورة أن الجزائر فرنسية.

في مقالته الشهيرة (المادية والثورة) أو (الماركسية والثورة) يطرح مجموعة من الأسئلة والأفكار بخصوص الفكر الماركسي والحركات الماركسية. وكان سؤاله الأول، هنا، هو؛ "هل المادية وأسطورة الموضوعية لازمان فعلاً لقضية الثورة، وهل لا يوجد انفصال بين عمل الثوري وإيديولوجيته؟". ويبدو أن سؤاله كان يرمي إلى زعزعة التلازم، في الفكر الماركسي، بين النظرية والتطبيق.

إذا كانت المادية تنكر الغائية المتعالية، وتُحيل حركة العقل إلى حركة المادة، وتلغي الذاتية برد العالم، ومن ضمنه الإنسان، إلى نظام يتكون من أشياء ترتبط ببعضها بعضاً بروابط كونية، فإن سارتر يخلص إلى نتيجة لا تخلو من مفارقة، يقول أنه لا شك فيها؛ "أن المادية مذهب ميتافيزيقي، وأن الماديين ليسوا أكثر من ميتافيزيقيين".

يخوض سارتر سجالاً فلسفياً، تحليلياً، جامحاً، اشتهر به. وفي معرض وصمه الماديين بالميتافيزيقيين! يمضي في إلقاء أسئلته واستنتاجاته إلى النهاية التي أكدها مسبقاً بطريقة يراها منطقية؛ "وكيف يحل المادي نفسه من تهمة الميتافيزيقا إذا رد الفكر إلى المادة، مع أنه يتهم بها المثاليين عندما يردون المادة إلى الفكر؟ ولا تؤيد التجربة المذهب المادي مثلما لا تؤيد مذهب الطرف المناقض له، وإنما تنحصر نتيجة التجربة في التدليل على وجود علاقة بين ما هو فسيولوجي وبين ما هو سيكولوجي، ويمكن تأويل هذه العلاقة آلاف التأويلات، فإذا كان المادي يدّعي أنه على يقين من مبادئه فإن تيقنه ليس إلاّ مصدر واحد من الحدس أو الاستدلال المسبق، أي الاستدلال الصادر عن نفس التفكير القبلي الذي استنكره، وإذن تكون المادية كما أفهمها الآن نوعاً من الفلسفة الميتافيزيقية التي تختفي خلف الوضعية".

أما في ما يتعلق بإلغاء الماركسية (المادية) للذاتية، يقول سارتر؛ "إن المادي حين ينكر ذاتيته يعتقد أنه قضى عليها. ولكن حيلته مفضوحة فهو لكي يقضي على الذاتية يعلن أنه (موضوع) أي انه مادة للعلم، ولكنه بعد أن يقضي على الذاتية من أجل الموضوع يعتبر نفسه (نظرة موضوعية) بدلاً من أن يرى نفسه شيئاً بين الأشياء تتدافعه حوادث الكون المادي، ويدّعي أنه يتأمل الطبيعة مجردة..".

ليس من السهل إيجاز سجالات سارتر الفلسفية بخصوص مبادئ المادية، لكن الإشارة إلى بعضها تُظهر سخونة تلك السجالات التي تعرضت للمشكلات النظرية التي انطوت عليها المادية، ومنها المادية الديالكتيكية.. يقول؛ "إن المادية وهي نوع من المذهبية عندما تؤكد أن الكون يولد الفكر ما تلبث أن تتحول إلى الريبية المثالية، لأنها تضفي على العقل بإحدى يديها حقوقاً لا حدود لها، وتنزع عنه باليد الأخرى كل هذه الحقوق".

قارن سارتر في كتابه (نقد العقل الديالكتيكي) بين الديالكتيك الخارجي والديالكتيك الداخلي.. تجلى الشكل الأول (التفسير الخارجي) في سعي أنجلس لإيجاد تناظر بين التاريخ الاجتماعي والارتقاء البيولوجي، حيث "أن العمليات التاريخية محكومة بقوانين التاريخ، مثلما أن الجسيمات محكومة بقوانين الطبيعة". وهذا يعد برأي سارتر انحرافاً وسفاهة سياسية. أما الشكل الثاني (التفسير الداخلي) "فإن الديالكتيك الماركسي يرى أن كامل التاريخ الإنساني ينبغي أن يُفهم باعتباره حصيلة للأفعال الإنسانية".

كان المقصد من التفسير الأول (الخارجي) هو إقرار أن التاريخ يسير متقدماً وحتمياً نحو غاية بعينها هي؛ الاشتراكية. فيما المقصد من التفسير الثاني هو الإطاحة بفكرة الحتمية، ومن ثم بفكرة القوانين الموضوعية التي تتحكم بحركة التاريخ خارج نطاق إرادة الأفراد والمؤسسات، والتأكيد أن التاريخ هو فعل الإرادة البشرية، لا غير. وقد أدرك سارتر أن الديالكتيك الداخلي "كما تصوره، لم يقترب قط من البرهنة على أن النضالات الاشتراكية ستتكلل، حتماً، بالنجاح". ويعلّق جوناثان ري على هذا التناقض والصراع بين الفكرتين (الديالكتيكين) بالقول؛ "إن الماركسية لم تتطلب أبداً نظرية غائية للتقدم التاريخي، أو مفهوماً عاماً للفعل الإنساني أصلاً وأنها ستكون بخير وعافية دون هذين الاثنين".

يقبل سارتر مبدأ الديالكتيك، وهو؛ "تحكّم الكل في الأجزاء، وميل الفكرة إلى الاكتمال والإثراء، وأن الارتقاء يسير، لا في خط مستقيم مثل ارتقاء العلة إلى المعلول، وإنما في تركيب متعدد الأبعاد تضم فيه كل فكرة في ذاتها جملة الأفكار السابقة عليها..".

يُقبل هذا المبدأ في مستوى الأفكار لأنها تركيبية،ولا يكون هيجل، حينئذ، في منظور سارتر، قد أوقف الجدل على رأسه لمّا "سحبه على الأفكار بدلاً من المادة". فالمادة، بحسب وجهة نظره، تتميز بالعطالة. وإذا كان عصب الديالكتيك هو الفكرة الكلية فإن عالم العلم كمي، والكمية نقيض الوحدة الجدلية لأن عناصرها تترابط بالمعية (أي أنها موجودة معاً) "ولا تتأثر الوحدة العددية بوجود وحدة عددية أخرى معها، إنها تظل ساكنة معزولة في قلب العدد الذي تكوِّنه، وهي لذلك يمكن عدّها، وإلاّ فلو كان هناك حادثان يقعان لطرفين بحيث يبدّل كل منهما الآخر لاستحال أن نقول؛ هل نحن إزاء طرفين مستقلين أم طرف واحد". وهكذا يصير العلم نقيض الديالكتيك "فيما يبحث فيه وفي مبادئه ومناهجه".

يناقش سارتر، بعد ذلك، أفكار أنجلس عن الطبيعيات، ومنها فكرة أن أي تغير في عالم الطبيعة هو انتقال من كم إلى كيف.. يقول سارتر "للمشتغل بالعلوم تولّد الكمية كمية، والقوانين العلمية هي صيغ كمية، وليس للعلم أية رموز يعبّر بها عن الكيفية من حيث هي كيفية، وعندئذ فما يقدمه (أنجلس) مدّعياً أنه إجراء علمي هو حركة بسيطة لعقله هو، تنتقل من عالم العلم إلى عالم الواقع الساذج، ثم ترجع مرة أخرى إلى عالم العلم وإلى عالم الحس الخالص".

وفي سياق السجال نفسه، وهو يناقش قانون المادية الجدلية الذي ينص أن التراكم الكمي يفضي إلى تغير نوعي، يوضح سارتر أن البحث العلمي "لا يهتم إطلاقا بتوضيح العبور من الكم إلى الكيف. إن البحث العلمي يبدأ من الكيف (أو الصفة) المحسوس بوصفه مظهراً خدّاعاً وذاتياً حتى نجد وراءه الكم (أو العدد) بوصفه حقيقة الكون".

في المنظور الماركسي يكون الديالكتيك قد حلّ محل الحتمية الميكانيكية، لكن سارتر يرى أن ماركساً مثل روجيه غارودي وهو يؤكد هذا الشيء يلجأ إلى تفسير الأشياء والمواقف بالعلاقات السببية السائرة في خط مستقيم "وتفترض الخارجية المطلقة للعلة في علاقتها بنتيجتها".

يفرّق سارتر بين الرابطة العلّية التي تسير في شكل خطي، حيث تظل العلة خارجية بالنسبة لأثرها، ولا تكون في آثار العلّة أكثر مما في العلّة، وبين التقدم الديالكتيكي الذي "يستدير إلى ما تجاوز من مواقف، ويحتضنها جميعاً. والانتقال من مرحلة إلى أخرى يثريه دوماً، فالمركّب يضم دوماً أكثر مما في الموضوع ونقيضه مجتمعين". أما أن تميّل العلم والديالكتيك بعضهما على بعض، كما تفعل المادية، فهذا يعني أن تضم بالقوة منهجين ينفي كل منهما الآخر.

سيقود هذا التخريج سارتر إلى أن يجد في محاولات الماركسيين دراسة الكيانات الفوقية كانعكاسات لطريقة الإنتاج مغالطة وزيفاً. وبعد أن يساجل في إبراز أوجه التناقض داخل النظرية المادية. والالتباس القائم بين التقدم الديالكتيكي والحتمية البيئية واللحظة التاريخية. وأيضاً بإشارته إلى تصوير المادية منهجاً وأسلوب تفكير حيناً، وأسلوب حياة حيناً آخر (عند الماديين) سيعد هذا "شكلاً من أشكال التفكير التقليدي ووسيلة من وسائل الهرب من الذات"..

أدرك سارتر طبيعة انتمائه البورجوازي، وما علمته إياه هذه الطبقة (الحريات السياسية، والحصانة الفردية، وسلطة الذات، الخ) لكنه كان يشعر بضرورة أن يكون إلى جانب البروليتاريا، يقول: "نحن ما زلنا بورجوازيين بثقافتنا، بطريقتنا في الحياة، وبجمهورنا الحالي، لكن الموقف التاريخي يحثنا في الوقت نفسه على الانضمام إلى البروليتاريا لبناء مجتمع بلا طبقات". غير أنه وفي خضم وقوفه ضد المذهبية الجامدة كان يتهكم من دوغمائية الماديين واجداً في موقفهم تناقضاً صارخاً؛ يقول؛ "ولقد شاهدت أناساً ينقلبون إلى المادية ويدخلونها كما لو كانوا يدخلون ديناً من ديانات الله. وما يفعلونه هنا ليس إلاّ الذاتية التي يستحون منها".

كان سارتر يرفض الربط الحتمي بين الدعوة إلى تحرير الطبقة العاملة والمادية.؛ "أنا أعلم أن لا خلاص للإنسان إلاّ بتحرير الطبقة العاملة. وأنا أعلم هذا دون ما داعٍ لأن أكون مادياً، ومن مجرد استقصاء الواقع. وأعلمَ أن من صالح الفكر أن يكون مع البروليتاريا: لكن هل يستوجب مني ذلك أن أطلب من تفكيري الذي قادني إلى اكتشاف هذه النتيجة أن يحطم نفسه". أي أن يلغي استقلاليته وفعاليته النقدية. ساخراً من أن تتجلى خدمة البروليتاريا في خيانة الحقيقة.. تلك الحقيقة التي عملت الستالينية على حجبها وتشويهها.

ويتلمس سارتر تلك المفارقة في أن تكون النظرية المادية التي شكلت "إنكاراً راديكالياً لحرية الإنسان" قد صارت أكثر الأدوات الراديكالية لتحرير الإنسان". ويذهب في سجاله إلى الحد الذي يقر بوجود "علاقة عميقة بين موقف طبقة مضطهدة وبين التعبير عن هذا الموقف بمذهب مادي". لكننا، يقول؛ "لا نستطيع أن نستخلص من ذلك أن المذهب المادي فلسفة، أو حتى أنه الحقيقة". داعياً في النهاية إلى تخليص المادية من بعدها الأسطوري، ورسم خطوط رئيسة "لفلسفة متسقة تعلو على المادية لمجرد كونها وصفاً حقيقياً للطبيعة والعلاقات الإنسانية".

أخيراً، يمكن الجزم أن سارتر تعامل مع الماركسية، ومع فكر ماركس تحديداً، باحترام فائق، لا بانقياد أعمى، واستثمر أدواته المنهجية في نقد الفكر الماركسي، ولم يكن هدفه تسفيه ذلك الفكر، وإنما تقويمه لأنه آمن بأن الماركسية هي نظرية الطبقة العاملة وفلسفتها في الفعل الثوري، كما هي فلسفة العصر. صحيح أنه حاول في كتابه الذائع الصيت (نقد الفكر الديالكتيكي) دحض فكرة ديالكتيك الطبيعة والحتمية التاريخية، وفكرة وجود قوانين موضوعية خارجية تسيّر التاريخ الإنساني، فاسحاً الفرصة للوعي والإرادة الإنسانيين في صنع التاريخ. وانتقد، في مقالات ودراسات عديدة أخرى، بشدة كل ما يتعلق بمصادرة الحرية الفردية داخل الإطار البيروقراطي للدولة الستالينية، والممارسات الاستبدادية لتلك الدولة في علاقتها مع مواطنيها، ومع الدول التي كانت يومها في ضمن المعسكر الاشتراكي، ولاسيما خلال أحداث المجر وبولونيا وربيع براغ. إلا أنه بقي مخلصاً للطبقة العاملة ونضالها ضد الرأسمالية. وللماركسية بوجهها الإنساني، ولفكر ماركس الذي عانى تشوهات المريدين الدوغمائيين وحماقات التطبيق.